الفصل الثالث

انتشار الكتابة فى خدمة الإسلام

كان حذق العرب للكتابة فى الجاهلية حادثاً هاماً فى تاريخ الفكر ، لم يظهر خطره إلا بظهور الاسلام ، والحق أن الكتابة خدمت الاسلام خدمة لا يضارعها شيء آخر، ذلك أنها كانت بالنسبة له خيراً من السيف .

وقد كان النبي عليه السلام يدرك قيمتها ويفهم خطرها . ولذلك فقد جعل يطلق سراح الأسير فى « بدر » إذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة ، وكان أقرب الناس إلى نفس الرسول كتاب الوحى ، ولا غرو فالكتابة هى الوسيلة الوحيدة لتدوين كلام الله وأحاديث رسوله ، والتدوين هو وسيلة البقاء ووسيلة الذيوع والانتشار .

وعند ما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ولزم التكاتب مع الأمصار فى شئون الدين والدنيا ، ظهرت للكتابة فائدة أخرى لم

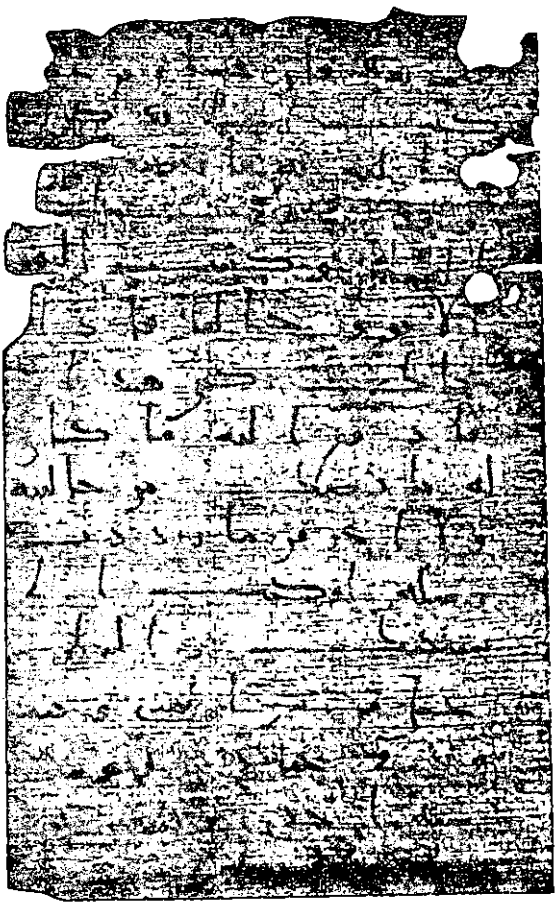

نموذج من كتابة التدوين على ورق البردي من نهاية القرن الأول الهجرى

تكن فى الحسبان ، ذلك أنها غدت وسيلة من وسائل الحكم ، بها كانت تصدر المكاتبات من الخلفاء إلى عمالهم على الأقاليم وتدون الدواوين وتضبط أمور الدولة .

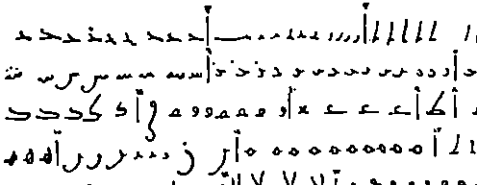

الحروف العربية فى القرن الأول الهجرى ، مستخلصة من مجموعة من الأوراق البردية العربية

دون بها القرآن أول نزوله على لسان الوحى ، وبها دونت كتب الحديث والشروح والتفاسير بعد ذلك ، وغدت وسيلة تعليمية بالغة القيمة منذ بدأ عصر تدوين المعارف العربية .

وكان أول انتشار الكتابة العربية من مكة إلى المدينة مع هجرة الرسول ، كما كان أول انتصار لها انتزاعها من بين أيدى أهل الذمة واتخاذها وسيلة لنشر القرآن .

ولما شاع الاسلام فى شبه جزيرة العرب بعد حروب الردة

ذاع أمر الكتابة، وفطن الخاص والعام إلى قيمتها وأخذ يحذقها الكثيرون ليقرأوا بها كتاب الله المنزل على رسوله .

وأدرك خليفة المسلمين عثمان بن عفان ما لتدوين القرآن من أثر فى حفظه وضبطه وذيوعه، فجمعه فى مصحف فريد عرف بالمصحف الإمام هو المصحف الذى أمر بنسخه وأشاعته فى الأمصار.

ومنذ حذق العرب الكتابة فى صدر الإسلام ، وعرفت قيمتها فى التدوين، عمل الخلفاء على تقريب الكاتبين وتفضيلهم، فكان لكل خليفة كتابه الذين يثق فيهم فيضعهم على رأس دواوينه منذ نقل عمر بن الخطاب نظام الدواوين عن الفرس . وكتب الأدب عامرة بكثير من أسماء حذاق الكتابة من العرب والأعاجم، وفضل هؤلاء كبير فى ذيوع أمر الكتابة الانشائية والخطية .

وقدر للكتابة العربية أعظم الذيوع والانتشار مصاحبة لغزوات العرب خارج شبه الجزيرة العربية .

فكان أول خروجها من شبه الجزيرة فى خلافة عمر مع الفتوح ، وأول استخدامها بأصولها الأولى التى احتفظت فيها

بالرسم النبطى فى كثير من صور الكلمات فى تدوين «المصحف» فى خلافة عثمان، وأول الافتنان والابتكار فيها فى الكوفة فى خلافة على بن أبى طالب وبعدها . وأول اختراع الأقلام التى تبعد عن صورة الكوفى فى خلافة بنى أمية فى الشام .

* * *

كانت الكتابة العربية محدودة المعرفة فى الحجاز قبل الإسلام، عرفها أهل الذمة ، وعنهم أخذها الصحابة من كتاب ،الوحى ثم تعلمها عامة العرب فى صدر الاسلام لما أدركوا من قيمتها فى التدوين منذ خرج العرب منساحين فى أرجاء العالم الذى قدر لهم أن يفتحوه . وهكذا لازمت الكتابة الإسلام تخدمه ويخدمها ، ويعظم شأنها بعظم شأنه ، ولا غرو فهى الوسيلة إلى تعلم العربية من ناحية ، وحذق القرآن والسنة من ناحية أخرى ، فضلا عما هى طريق إلى خدمة الدولة وذوى السلطان .

وقد كانت الكتابة العربية فى انتشارها غازية قوية التأثير فى البلاد المفتوحة — يدل على نفاذها وعظم تأثيرها اتخاذها لرسم لغات الأمم المغزوة التى لم تتحول إلى لغة الفاتحين ، ففى إيران حلت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية فى كتابة

لغة الفرس مع زيادة حروف معينة . واستخدمها الافغانيون فى كتابة لهجاتهم «البامبرية» وزادوا عليها بعض الحروف الخاصة، وكذلك البلوخستانيون الذين اتخذوا العربية وكتابتها فى مسائل الدين خاصة .

وفى الهند حلت الكتابة العربية محل حروف اللغة الأوردية الهندوستانية ولغة أهل كشمير . ونحن نجدها فى الهند شائعة لكتابة لهجات المسلمين الهنود أينما كانوا . واستعار العرب أرقامهم

١٢	اِسکے بعد وہ اور اُسکی ماں اور بھائی اور اُسکے شاگرد
	کفرنحوم کو گئے اور وہاں چند روز رہے ۝
١٣	یہودیوں کی عید فسح نزدیک تھی اور یسوع یروشلیم کو
١٤	گیا ۝ اُس نے ہیکل میں بیل اور بھیڑ اور کبوتر بیچنے والوں
١٥	کو اور صرافوں کو بیٹھے پایا ۝ اور رسیوں کا کوڑا بناکر سب کو

نموذج من كتابة الأوردو الهندية بالحروف العربية (الفارسية)

من الهنود ، وتخطت الحروف العربية حدود الهند شرقاً وجنوباً بشرق، فاتخذها أهل أرخبيل الملايو من المسلمين لكتابة لغتهم « الملقية » ورسم بها أهل جاوه والفلبين لغتهم الخاصة .

وذاعت الكتابة العربية حتى أدركت الصين فكتبت بها « النصوص الدينية الاسلامية » لمنفعة مسلمى الصين الذين بقوا يكتبون لغتهم الصينة فى شتى أمورهم الأخرى بالحروف الصينية المعروفة . وهكذا كان اعتناق الإسلام فى الصين داعياً إلى اتخاذ الحرف العربى لأغراض دينية فى مقاطعات زنجاريا وكشمير ومنشوريا ويونان .

وكما قدر للحروف العربية أن تعرف فى هذه الأرجاء البعيدة ، قدر لها كذلك أن تعرف وتتداول لنفس الأغراض بين مجموعة لغات الأمم التترية والتركية التى تسكن حول بحر قزوين وتنتشر شمالى البحر الأسود وجنوبى جبال أورال ، وهى لغات قازان والقرم وقفقاسياوآذربيجان وداغستان وبلاد الجركس وخوارزم ، ولم تدون لغات هذه البلاد بالحرف العربى إلا منذ القرن السابع الهجرى وهو أول عصر التدوين فى محيط الأمم التترية والتركمانية بخلاف الفرس والهنود الذين سبقوا إلى اعتناق الاسلام واتخاذ الكتابة العربية .

وقد بلغ من شدة غزو الحروف العربية أن جاوزت هذه الحدود إلى إقليم سيبريا حيث كتب بها مسلمو روسيا بتأثير من

مسلمى التركستان الروسية . وانتقل الخط العربى بانتقال القبائل المسلمة الروسية من سيبريا نحو الغرب ، فلا عجب إن وجدناه معروفاً الآن فى إقليم روسيا البيضاء يحذقه مسلمو الروس فى تلك الأنحاء .

على أنه قد لزم بسبب الضرورات المحلية زيادة حروف معينة على الأبجدية العربية حتى تصبح فى تلك الأصقاع صالحة لأداء الأصوات والمخارج التى ليست أصلا فى لغة العرب .

وكان من أثر اتخاذ الترك العثمانيين للحروف العربية أن اتخذها عنهم بعض دول البلقان التى انتشر فيها الإسلام بفضل جهود الأتراك كبلغاريا وألبانيا وغيرهما من الأطراف التى دانت للعثمانيين ، وتبعتهم فى وقت ما تبعية سياسية .

ومما تجمل معرفته فى هذا المضمار أن الحروف العربية النسخية هى أكثر الحروف استعمالا فى تدوين القرآن وكتب الدين بين الأمم التى احتفظت بلغاتها الأصلية . وذلك لسهولة قراءتها وعدم اللبس فيها ، اللهم إلا فى الهند والصين حيث استطاع الفرس

بتأثيرهم الأدبى على هذه الجهات أن ينشروا خطهم الفارسى بأنواعه المعروفة ، ومع ذلك بقيت للخط النسخى الغلبة على بقية أنواع الخطوط فى تدوين المخطوطات الدينية حتى فى بلاد الفرس ذاتها . فلا عجب إذن أن نرى مصحفاً فارسياً مكتوباً بخط النسخ المعروف ، تتخلل سطوره الشروح والتفاسير بخط « التعليق » أحد أنواع الخطوط التى ابتكرها الفرس . وقد لزم الهنود طريقة الفرس فى كتابة مصاحفهم الخاصة ، كتبوها بخط النسخ وعلقوا عليها بخطوط أخرى .

أما انتشار الكتابة العربية فى العالم الأفريقى ، فيرجع بادئ ذى بدء إلى أول فتح العرب لمصر فى خلافة عمر بن الخطاب ، فمنذ ذلك التاريخ امتد الخط العربى إلى شمال إفريقية فى إثر الفتح ، كانت تكتب به رسائل الخلفاء إلى الولاة وردود الولاة على الخلفاء ، كما كانت تكتب به المصاحف وتدون به الكتب الدينية .

غير أن الصورة التى كانت ترسم بها المصاحف هى صورة الخط الكوفى المتميز بخصائصه المعروفة . أما كتابة الرسائل فى

مصر بوجه خاص فكانت بخط التدوين اللين الذى يخالف الخط الكوفى كل المخالفة .

أما خط التدوين الذى انتهى إلى مصر فى خلافة عمر، فهو الخط المدنى نسبة إلى المدينة، وهو صورة متقدمة من صور الخط العربى الأول قدر لها أن تتطور فى مصر تطورها الخاص حتى صارت الصورة المفضلة للتدوين : سواء فى ذلك تدوين الدواوين وتدوين المعارف .

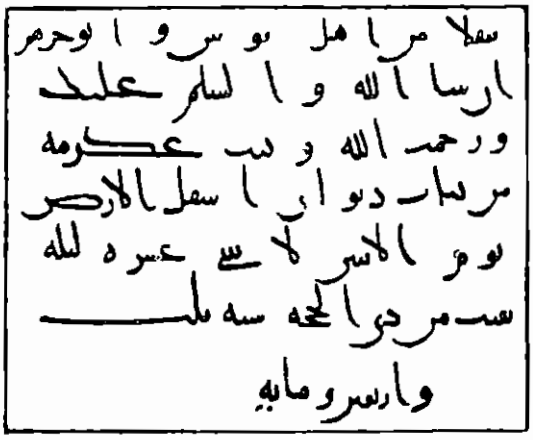

مثال من كتابة التدوين فى مصر فى القرن الثانى للهجرة

وقدر للخط العربى الذى صحب الفتوح العربية فى شمال أفريقية أن يتطور تطوراً خاصاً فى بلاد المغرب والأندلس، وغدت له هناك خصائصه المغايرة لكافة أنواع الخطوط العربية على نحو ما يتضح من النظر إلى كتابة مغربية .

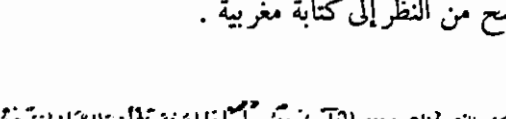

مثال من الكتابة العربية المغربية

وترجع معرفة الخط العربى بين أمم إفريقية الغربية إلى تأثير المغاربة الذين نشروا الإسلام بعد تمام اعتناقهم له فى أوائل القرن السابع الهجرى، حيث تمكن المغاربة من تكوين دولة مركزها فى إقليم النيجر الأوسط تميزت بخط متفرع من الخط المغربى هو الخط السودانى .

والخطان المغربى بنوعيه (السوادنى والمغربى) مشتق لا من

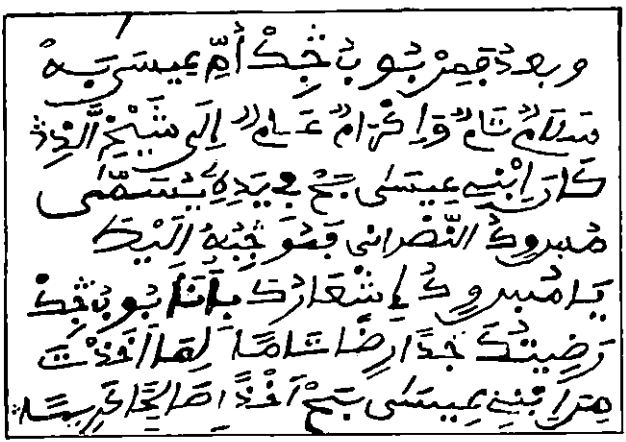

نموذج من كتابة شعوب السودان الغربى المتأثرة بالكتابات المغربية

خط التدوين اللين الذى عرفته مصر منذ الفتح العربى ، بل من الخط الكوفى المعروف ، وإن كان أكثر منه مطاوعة فى يد الكاتب وأميل إلى الاستدارة .

أما النوبيون من سكان حوض النيل الأوسط فلم يدونوا لغتهم ، إلا أن العرب حين غلبوهم على أمرهم واستوطنوا بلادهم أدخلوا فيها الكتابة العربية بصورتها التى عرفت بها فى مصر ، لاسيما وقد كانت النوبة دائماً تابعة لولاة مصر من قبل الخلفاء . وليس هناك

أمثلة من الخط العربى النوبى ، وأغلب الظن أن النوبيين لم يكتبوا على طول العهد الاسلامى اللهم إلا متأخرين . وعند ما كتبوا خطوا كتابتهم بالحرف العربى بدليل ما تقدمه للمسيحيين منهم بعثات التبشير من الأناجيل المطبوعة بالحروف العربية كانجيل مرقس المطبوع فى أوائل هذا القرن بالعربية الدنقلية .

أما السواحليون من سكان شرق أفريقية ، فقد عرفوا الكتابة العربية حين وفدت عليهم مع الإسلام منذ نهاية القرن الأول الهجرى ووجدت الكتابة العربية أعظم رواج لها فى مدغشقر التى ساد فيها الاسلام مبكراً بسبب كثرة وفود العرب على هذه الجزيرة بقصد التجارة ، وهى تستخدم هناك لكتابة اللغات المحلية .

وترجع معرفة الأحباش للكتابة العربية واتخاذهم لها لتدوين لغاتهم ولهجاتهم المختلفة إلى زمن قد يرتد بعيداً إلى الوقت الذى هاجر فيه المسلمون الأوائل إلى بلاد الحبشة فراراً من إيذاء الكفار . وزادت معرفتها هناك بانتشار الاسلام فى البلاد ، ويكتب مسلمو الحبشة لهجاتهم الحبشية الآن بالحروف العربية ولا سيما فى الجنوب حيث يكتب به السكان لغتهم «الأمهرية» . والخط العربى مستعمل كذلك لكتابة اللهجة «الحررية» وهى إحدى لهجات الأحباش الشرقية .

والكتابة العربية شائعة الاستعمال من قديم بين القبائل الكوشية ومنها بعض القبائل التى تتفرق الآن فى الحبشة - كالاغووالغالا ، وجنوب النوبة ، كالبجة وجنوب مصوع ، كالسوهو .

ويكتب السوماليون لهجاتهم بالحروف العربية ولكنهم يكتبون خطهم العربى من أعلى إلى أسفل .

ويتميز الخط العربى السواحلى عن غيره من الخطوط العربية بشكله الخاص وصعوبة قراءته .

والكتابة العربية بالغة من الرداءة حداً كبيراً جداً بين مجموعة القبائل الكوشية التى مر ذكرها .

وخير ما يرى فى تلك الأنحاء من نماذج الخط العربى تلك الكتابات التذكارية « الكوفية » التى على جدران المسجد الجامع فى زنجبار .

وقد كان استخدام الخط العربى بين أمم أفريقية الوسطى بمثابة الرابطة التى جمعت بينهم ، فهو وسيلة من وسائل التجارة وطريقة من طرق التفاهم فى كثير من أمور الحياة بين هؤلاء الأقوام .

وتكتب الجاليات العربية لمهاجرة إلى سواحل إفريقية الشرقية

ومدغشقر وجنوب القارة الإفريقية لهجاتها أو لغاتها الخاصة بالحروف العربية الموروثة .

* * *

ويتبين من ذلك أن الكتابة العربية صحبت ، لغة العرب الفاتحين ، فكانت وسيلة تصويرها فى شتى أمور الدين والدنيا ، وحيثما بقيت السطوة للغات الأمم المقهورة، اتخذ الحرف العربى لكتابتها فى كثير من الأصقاع تفضيلا له على الكتابة المحلية حتى لا يضطر المسلمون من أهل هذه الأقطار إلى حذق كتابتين مختلفتين ، إحداهما لأمور الدين والأخرى لأمور الدنيا — ولم يمنع هذا من بقاء كتابة البلاد الأصلية قائمة لحفظ التراث الأدبى القديم تحذقها الأقليه من الناس إلى جانب الكتابة الغازية .

وليس هنا مجال الكلام على انتشارها وتزعمها بين عرب الأندلس الذين استخدموها استخدام عرب الشرق فى تأدية الأغراض المادية والروحية جميعاً، وشاع استخدام الخط العربى الأندلسى بين سكان شمال أفريقية بطابعه الخاص الذى لا يزال ظاهراً فى خطوط هذه البلاد حتى الآن .

وتوغل الخط العربى فى أسبانيا وجنوب فرنسا حتى بلغ مع فتوحات العرب أقاليم « اللوار » الجنوبية فى الحلقات الأولى من القرن الثانى للهجرة .

ومنذ ذلك التاريخ قدر للعربية وكنوزها العلمية أن تبلغ الذروة انتشاراً بين الراغبين فى العلم من الأوروبيين فى إسبانيا والأمم المجاورة، ممن كانوا ينزحون إلى ديار الأندلس طلباً للعلم فى وقت كان العرب فيه يحذقونه ويحتفظون بتراثه . عندئذ تعلم الأوروبيون من محبى العلم لغة العرب وكتابتهم ، ليقرأوا بها المخطوطات ويحفظوا بها الآداب العربية من شعر ونثر وزجل .

ومنذ ذلك التاريخ قدر لكثير من ألفاظ العربية أن تدخل فى لغات هؤلاء، وأثرها ما يزال واضحاً شديد الوضوح فى لغات الإسبان وصقلية وإيطاليا الجنوبية .

وبلغ من تأثير غزو الحروف العربية أن اتخذها الإسبان والصقليون وكثير من أمم أوربا لزخرفة المبانى والعملة . وظل « المدجنون » يكتبون لغتهم الإسبانية بالحروف العربية ؛

والمدجنون هؤلاء هم العرب المتنصرون بعد زوال ملك العرب من أسبانيا .

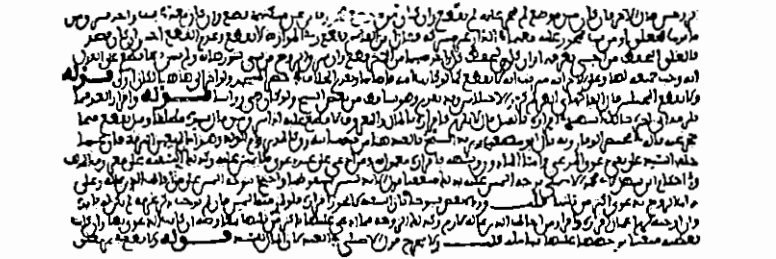

مثال من الكتابة العربية الأندلسية

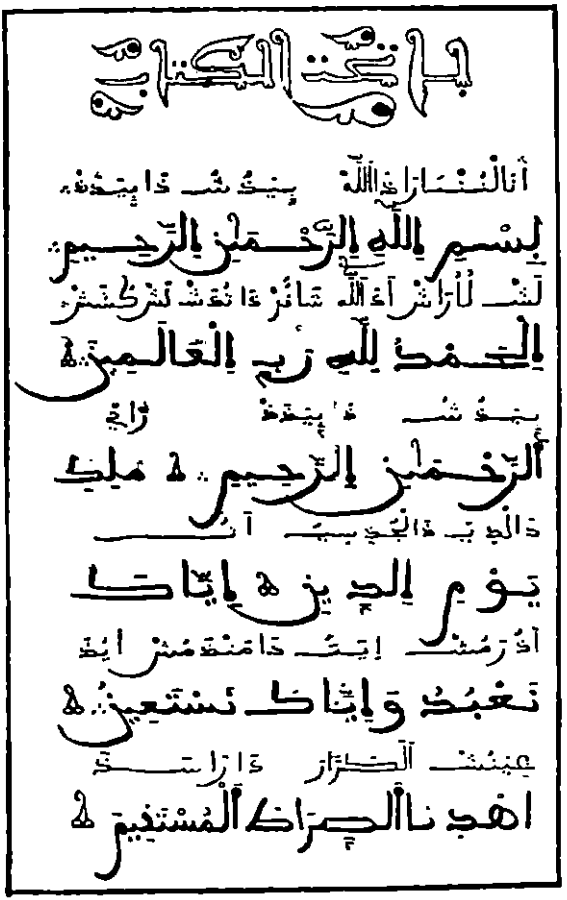

بين السطور مثال من كتابة اللغة الأسبانية بالحروف العربية